أثر الروح..



The Faith

ثائر العبدالله العجاج

أثر الروح

المؤلف: ثائر العبدالله العجاج

صور الغلاف: يزيد الجهني
تصميم: Raed alabdallah

face book: ثائر العبدالله العجاج

Gmail: thaermohndse@gmail.com

«سواء كان الأمر في الموسيقى أو الأدب، أهم شيء هو الإيقاع.
إن الأسلوب يجب أن يحظى دوما بإيقاع ثابت وطبيعي وإلا فلن
يقرأك الناس... هكذا علمتني الموسيقى»

هاروكي موراكي

التاسعة عشر من فبراير:

ليلةٌ تتكحل بإزرقاق جسدي..
إلى اليمين منّي بضعة أبنية، أحدُ تلك الأبنية فيها غرفةٌ مضاءة.
لا أعلم ما الذي شدّني في النظر مطولاً إليها، على الرغم من خوفي أنْ أموت من عناق البرد لي، إلا أنّ الفضول أحياناً يجلب المخاطر.
ها قد فُتحت النافذة، يد شابٍ على ما أظن، أرى التشنج في إمساك الستائر، وها قد ظهر!

يبدو أنّه عصبي المزاج.
لم يطق إكمال ما تبقى من الستائر، إلى اليسار ثلاثة عشر رجلاً، على ما أظن من هذا المشهد أنّها محاولةٌ للانتحار، وأنّه متردّد في ذلك؟

هناك مقولة دائماً ما أسمعها من محمود درويش، يقول فيها:

"الموت لا يوجعُ الموتى، بل يوجعُ الأحياء المعلقين على أمل الخلود"

هذه المرة يبدو عازماً على ذلك، بدأ يكتب وصيته بحبر روايته التاسعة.

لم يمزق ورقةً واحدة، لم يجرح نفسه كما يفعل البقية فهذا الطقس في العادة يجرح الناس خلاله أيديهم أو صدروهم ويتركون من آثاره على الجدار كخلودٍ مؤقت فيما بعد رحيلهم.

ربّما ننسى عواطفنا حينما لم تكن تلك الفكرة بباله!
وربّما نسيناهُ حينما كان كائناً بيننا محاولاً إحياء ما تبقى من سعادتنا سوياً لكننّا ننسى ذلك.
ها قد سقط، ودمهُ يحاول الهروب من جسده، كان في وسعي إنقاذه، وكان في وسعي الإصغاء إليه، ولأنّني أعلم أنّ الانتحار هو قتل ألم مؤقت بروحٍ غالية، وأنّ اليافعين هم ضحايا ذلك.

فارتأيت أن أتركه!
إلى الآن لا تجد من يسمعك، وإلى الآن تحاول لملّمةَ ما تبقى من سعادة الروح في الملامح.

لا أحد يصغي إليك، لأنّك الوحيد الذي يُصغي إلى الأخرين دون أن تبوح بكل مشاعرك أو بعضها، ولأنّ الودّ فيك عامرٌ؛ لم تترك أحداً يقتل نفسه.

إلى الآن تحاول إقناع نفسك أنّ الحياة تحملُ بعض السعادة، وأنّ ما باتَ مراً سيبدله الله بالأجمل، وأنّ تعب النفسِ من تكرار ذات الكلمات التي تفضي إلى خلق الضجيج" موسيقى الآرق" في رأسك، وتتركك يوماً كاملاً بلا نوم أو هدوء.

"الله وحده يعلم أن شكوى الإنسان لغيره.. هي حاجة لسماع صوت الله في أيّ مكان"

في داخل كلّ منّا تفكيرٌ خطير تبقيه النفس قيد التحرر حينما تكثر المصائب حولنا، وحينما لا يستطيع أيّ أحد التفكير عنا أو مواساتنا ولو ببضع كلمات، فإنّ ذلك سيفضي إلى الوقوع في المخاطر أو المساوئ التي لا نحبذ حتى الاقتراب منها.

العشرون من فبراير:

ليلة المكوث تحت غرفته
ما قد أفزعني أنّ الرجال الثلاثة عشر لم يتحركوا أبداً، رغم أنّهم كانوا يحاولون منعه بشدة، لكنهم الآن ارتأوا أنّ يبقوا جسده هنا.
في الغرفة المليئة بالرتابة اللا مرئية، هناك ورقتان غريبتان، إحداهما ملطخةٌ بحبرٍ زهري اللون، هي الرسالة التي أفضت إلى انتحاره.
قد بدأت أخاف قراءتها، قد أفضي أنا لانتحارٍ أخر.
حاولتُ تمزيقها ألا أنّ فضول الرؤية مخادع...وقد رأيت جملة في بداية الورقة: "إن تركوك فغب"
ولم أكمل ما بعدها، أخذتها إلى احدى الروايات، ثم وضعتها بداخلها.
اما الورقة الأخرى كانت تحمل كل ما أراد قوله للأخرين:
في داخلي العديد من الأشياء التي تؤذي قلبي، نظرة الناس لي، تقلبهم من حال إلى حال، تكبرهم علّي، والكثير من ذلك.

حين أصحو من نومي أذهب فوراً إلى المرآة أخاف دائماً من تغيير وجهي، وحين أعود إلى فراشي أكاد أنسى أنّي ذهبت لرؤيته.

حينما أصحو من غفوة ولو قليلة قد تكون مريحة ولو بشيءٍ بسيط، أفكر بالموت:
أأغيب عن الوعي تماماً؟

أم يأخذني الألم من دائرةٍ إلى أخرى، ومن عذابٍ لأخر؟
هل الحياة والموت عدوّينِ لدودّينِ لا يأبه أيٍّ منهما لخوف الإنسان من حربِهما الدامية؟!

فيثقل رأسي، ثم أنام قليلاً بين سطرين مؤقتين تجرحهما نفسي.

كل هذه الورقة تحمل مالا يسمعه أحد.
أكانت حياته بتلك الصعوبة؟
أم وحدة الإنسان تحمل الأمور أكثر ما تفضي إليها؟

ربّما تكون الوحدة هي المصغي الوحيد لضحيتها دون أن تنبس ببنت شفة.

هل سينتهي هذا اليوم دون أن أصغي إلى علاء، قبل حادثته تلك؟ أأنتظره إلى الليل، تحت غرفتهِ؟

يعيد فتح النافذة بيده المتشنجة، ويربط الستائر ببعضها ولا يترك أيّ واحدةً منها.

ها قد بدأ يحاول قتل الضجيج برقصه الزائف، لا يفلح في ذلك، قد سقط في أول البداية، يجثو على ركبتيه وينزف منهما دمه الذي رآه لأول مرة منذ أنّ رحلت طفولته في جنازة مهيبة.
يستند إلى السرير بجسده المرتجف، وعينيه المرتعشين من هول الحقيقة بعد دقيقة.

يسير قليلاً إلى النافذة، ولا ينتظر هذه المرة دون تردّد، يقفز إلى موته، ويهرب الدم من جسده، دونما تردّد أو أناس ينظرون إلى جثة مرئيةٍ وغير مرئيةٍ معاً.

ولا يجفلون من تعالي الموت فوق رؤوسهم، فقد باتوا سعداء من هذا القدر.

الواحد والعشرون من فبراير:

اليوم ارتأيت أن أذهب تحت نافذته منذ الصباح، وسأحميه مهما فعل خلال وصولي إلى أسفل البناء تحت نافذته مباشرةً، كنت قد وجدت سبعة أوراق مرميةً من إحدى هذه المنازل الأربعة.

شدني ذلك إلى قراءتها لعلّ الوقت يمضي سريعاً، جمعتها كلها وشرعت في قراءتها.

كانت تقول الأولى:

إنّ قيل لي مرة أخرى: متى ستعود!
سأتجاهل مرة أخرى، وأنده ُ لنفسي كأنّي ولدتُ من العدم بجسدٍ نأى أنْ يكون طيفاً عابراً، وسأعدُ الفطور له ولي، ونتأخر عن العمل، ونلبس من ثياب بعضنا.
كأنّي هو وكأنّه أنا.

لا اختلاف بيننا لنا حرفٌ وقلم، وذات الندبةِ على القلب، تلك التي أخذتنا من عدمٍ إلى أخر.

سأغني له ويطربه اللحن ويشجن، وسيغني لي ولا يعجبني، وسنكتب مرة أخرى حين يودعني: "كما أنا الآن أضع راحة يدي على صدغي، وألبس قميصاً أبيضاً اكتب رسالة وداع مقروءة لي ومرسلة إلي.

أكملُ في تناغمي، وأختلس النظر إليً أنا أمامي، وأقول:
"سيختفي حين انتهي "
ويختفي! وتكتمل العزلة بي، وأشعر بالرضا عليّ ومن الله.

أما الثانية:

لا أحد يسمعك أنينك الآن.
وحدك في غرفة غدقة بليلٍ حالك الخطى.
صوتك يعلو بغناء الأوبرا العميقة.

تحدث ضجيجاً قاسياً كأنّك تولدّ من عدم، وتموت لعدمٍ أخر.
لا يحبون غناءك، تسكت فجأةً، ويصمتُ الضجيج، تعود إلى الأوبرا الخافتة.

قد تكون أقل انفجاراً من سابقتها، لكنها أكثر حرية من الأخرى.
ترتّب المكان الذي كان لك، وتكتب سطرين على ورقتين، إحداها انطفأت من حريق يدك، وأخرى لاتزال مشتعلة.
وتخرج رائحة الحبق، إلى جارك في الدور العلوي، كي يخفف غضبه من حريتك المطلقة.

لا أحد يسمع أنينك الآن، إلا الحبل الذي على عنقك، ولا أحد ينّشد الآن، سوى الأنشوطة التي عقدتها بشدّة كي تصل إلى محطتك الأبدية، بسلامٍ مؤلم.

لم يسمعوك كأنَّك لم تكن. لم يروك كأنّك واحدٌ منهم، وحين اختفيت تباكوا عليك.

ألانَّك واحد من مئة؟!

أم لأنّ الحقيقة لا تقالُ دائماً؟!

أرأيت ذاتك في المرآة؟

أأخذت تحدق بما تحت عينيك!

أكنت مثلنا أم مثلهم؟

أأبدعت في وصف الظهور، في رحم الخفاء؟

لن ير أحدٌ شخصاً أخرّ، إذ لم ير ذاته!

تهاجموا على جثتك، وحملوها على أكتافهم، جرحوا فمك عن غير قصد؛ حين فككوا الأنشوطة التي لم تصمت عن النشيد.

لمّ يُرّ وجهك من كثرة الأكف.

ذكروا ماضٍ ليس لك فيه سوى اسمك.

وحين أخرجوك من الباب أخذت الأنشوطة، تنشد على أعناقهم واحداً تلو أخر.

الورقة الثالثة:

بشفاهٍ حريرية الطيف، انتثرت بظلالها على المقعد الصغير أمامي، وحي البراءة يخفي ارتباك هيئتها!

كهدأة الطير، تميل بلا انثناء، عطرٌ توشحهُ الهواء.
سقطت راية العزلة!
يا منشدي، وزهر مخيلتي، يا فضاء الكبرياء، ونجم الدجى، يا لذة الكون العزيز.

تأوي الشمس إليها على حين غرة، ويفيض الزهر من ضفتي خديها، وينده الندى بظلمته عليّ، على حظٍ زادنا في التعاسة خوف الحديث.
تغيب!

ويغيب صداها عن قمرٍ أراد لها المكوث في شفةٍ متشققةٍ زادها السوء دماً وبعادا.

أما الرابعة:

هناك عند أول لقاء أمام الفندق الصغير، وتحت الشجرة المعمرة.

أحفظها كما يحفظ الظمآن كتل السراب حوله.
لعلّ كلمةً في حنجرتي أخفيتها وألزمتها الصمت، قد تحولت من سلام عابرٍ إلى حب.

قد أهفو حين أسألها: كم الساعة الآن؟ لأقول: أحبك.
وقد أراها تلفظ النظرة الأخيرة في ذات المكان إلى وداعٍ لم يكتب لنا معرفة وصاله.

ليتني كنت حينها صادقاً، ليتني رأيت الحب الذي وهبتهِ لي، ليتني لم أتجاهلهِا عمداً.

الورقة الخامسة:

العام السّابع
قد مرّت سبعةُ أعوام على اختفاءي!
قد لا تقرأين هذه الرسالة، وقد لا أراكِ ثانيةٍ!
لكن ما في داخلي قاسٍ عليّ.

البارحة كنت قد مررّت خلف الفندق لأسترجع أخر اللحظات التي رأيتكِ فيها!
كنت قد صدمتُ ثانيةٍ، قطعوا الشجرة ورموا المقعد، وجرّ الشجرة رجلٌ عبس الوجه عاقد الحاجبين كأنّما يجرها من روحي.

لا أحد يعلم مقدار الألم الذي خلفه ذلك.
أخذت غصناً من الشجرة التي رماها في الحاوية، وخبأتها أسفل وسادتي.
أيعقل أنّي سأراكِ ثانيةً؟ أو أن أحلم يوماً ما بكِ؟
إنّ عدتي فأنا هناك عند أكوام الحجارة السوداء التي استبدلوها بمكاننا!!

الورقة السادسة:

اليوم ذبل الغصّن بالكامل!
أتدّرى ما شعّور المرء حينما تختفي أخر ذكرى له يحبّها؟

منذ قلّيل أنهيت قراءة أخر رسّائلي علّيه، كانت أخر بقعة لازالت حيةً فيه، علّها تصل إليها وتسمعها:
يا اسم الرّوح..

اليوم بين غصّنٍ وورقّة، أذبل انا أولهما، أتذكر رؤياي للضفّيرتين اللتين عقدتهما بأنشودةٍ هادئة "يا زهري ودنياي، يا روحي ومسعاي....." أتذكرّينها؟!
رأيت فتاةً مرّت من قربي تغنيها، تلك اللحظة لم أتمالك نفسي، سرتُ خلفها مخدّر الأطراف مثقل الرأس، كأنّما روحي تسّير بين السّماء والأرض، لكنها اختفت!

أكنتِ هي؟!
يا اسم الروح لا تغيبي، عودّي!

الورقة الأخيرة:

عبثاً يصارح!
يبحث عنها بأوجه العابرين، كأنّها ظلٌ من الرّوح علت واختفت.
أتراه يجدها؟
أتراه يقف عن الحلم ويصحو؟

ها هي الأعوام دونها، أصحو على غيابها وعلى اسمٍ كان يحيني والآن يميتني.
لو أنّ للقدر عودةً واحدة وإن كانت بأثرٍ على جمر، لسرّته دون هوان.

لم أعلم أنّ الأيام قد تأخذها بعيداً دون رجعة، دون أثر، دون ظلٍ يطفو على الروح.

أحببتها كحب الغمام لكبد السماء، وأرهقني غيابها.
لعلّ الحياة تحييها مرةً أخرى!

لم أعلم مقدار الألم الذي يمرّ به، ولا أستطيع تحمله أنا أيضاً.
بعد ساعة من جلوسي هناك، سقطت مجموعة أوراق
أخرى، لكن لم أعرّها أيةّ أهمية، لا أريد أنّ يعرف أذّي هنا، ولا
أريد أن يحاول أي شيء.

مرّ الوقت وبدأ صراخه يعلو، لا أحد يعلم مقدار ألمه ولا أحد
يريد إيقاف كل هذا.
عبثية الحياة تأخذ من عمري كثيراً!

هنا بين سادّة الغياب.
أقلب روحي على آلامها علّها تكف عن البقاء. أما آنّ لها
الرِّواح؟!
يبقى الشخص وحيد عزلته حتى تتساوى أيامه
يئن.. يجن... أو يتهاوى على ظلّه!

ها أنا أراه من النافذة، قلب الستائر على عجلٍ ثم لفها، وطواها على جانبٍ واحد، أشعل الأغاني الفارسية، حشى الوسائد بثيابه. قص الوردة الأخيرة، حملها بين شفتيه، ثم سار نحو النافذة ثم رمى نفسه.

لم يكن هنالك ما يفكر به ليوقفه عن ذلك.

حتى أنا لم أستطع ذلك!

الاثنان والعشرون من فبراير:
ليلةُ الإسراف في الحقيقة.

السابعة مساءً، قبل الحادثة بساعتين وسبع دقائق.
يفتح الباب الموصد جيداً، تظهر أصابعه الخمس بهدوء، كأنما تتحسس ما تلمسه، وقدمه اليسرى تسبق المشهد في دخولها إلى الضياع.

يتجه نحو طاولته القديمة، ويسحب كرسيه إلى الوراء كي يجلس عليه، ويسقطان هما الأثنان، ويبقيان على هيئتهما المتعبة طويلاً.
ينام هو ساعةً كاملة، ويحلم بليلةٍ تصنع الصدى من خوفه.
تكثر الآلام فيه، ويصحو حين اعتناق الحنين لجثته النائمة على عجلٍ.

يرفع جسده الثقيل بيديه عن الأرض، ويبكي لأول مرةٍ.
"البكاء آخر الاعترافات بالحقيقة دون البوح بها"

قد انهزم رغم رصانته وقوته كل هذا الوقت، ويبدو أنّه لم يستطع إخفاء خوفه من الانتحار، كتب الوصية ذاتها والورقتان الغريبتان ذاتهما فوق طاولته المهترئة.

الساعة التاسعة تماماً، بقي سبع دقائق.
أقف أنا خلف البناء، لكنني ابحث عن الرجال الثلاث عشرة..
لا أحد منهم هنا، أنظرُ للنافذة قد فتحها بيده المتشنجة.
ها قد بدأ يلف الستائر واحدةً تلو أخرى ببطء لكنه أيضاً لم يترك هذه المرة ولا واحدة.

الرهبة هي من الأمور التي تجعلنا نتمنى لو كنا عدماً.
يقف على عتبة النافذة، ويتأمل المنظر على غير العادة، ثم يترك الأمر للإفلات من القدر.

كان جلّ تفكيره أنّ تزداد الدقائق دقيقة واحدة، كي يغير كماً قليلاً من قدره؛ آملاً بأنّ تكون اللحظة الأخيرة مغيرة لكل شيء.

جثته الهامدة يهرب منها الدم الساخن عن جسده، وتنقضي ليلةٌ أخرى، بإسرافٍ كبير في الحقيقة.

الثالثة والعشرون من فبراير:

ليلة الاعتراف.

الساعة السابعة مساءً

أكاد أجزم أنّ المشهد دائماً ما يتكرر بلونين مشهورين الأبيض والأسود، وأنّ المشهد فيه من اليأس مالا يطاق، لكن البكاء يضفي عليه طاقة الحزن أيضاً، وكما نعلم أنّ البكاء أخر وسيلة للاعتراف بالخطأ كان لابد منه.

يفتح الباب الموصد، ويدخل يده وقدمه اليسرى، ويذهب إلى السرير فوراً مخافة السقوط على الأرض، فانتشال نفسه من

هناك أمرٌ صعب، كما لا أخفي مخافته من تسارع الوقت أثناء نومه كما حدث ليلة البارحة.

يتخذ وضعية القرفصاء فوق السرير، ويهز نفسه بتناغم ملحوظ يتسارع تارةً ويختفى تارةً أخرى، كان عليّ القدوم مبكراً، لكنني آتيت حاولت تهدئة نفسي قليلاً، بأنّ أمسح رأسه قليلاً فهذا التناغم الذي أصابني لا يكف عن التوقف.

قال لي:
_كلانا في نفس المدينة، وكان على أحدٍ منّا الرحيل، لم تعد تتسع لنا، وهذا ما أجبرني على اختيار الانتحار!

_قلت له: ألم تجد طريقة للهرب غير الانتحار؟!
لمّ لم تسافر؟ أو أن تتأقلم مع فتاة أخرى تناسبك؟!

_قال لي:
أتعلم؟! الانتحار كان أسهل الوسائل لأتخلص من ذكرها، إلا أنّي لم أعلم أنّ الانتحار سيتكرر عدة مرات، وسأعيش ذات الألم في كل مرة...

_كانت هي السبب في كل هذا!

_من؟!

_هي لا غيرها التي أحبتني قبل موتي؟!

_وانتحرت من أجلها؟

_قال: كانت ذكراها تؤلمني، لم أستطع نسيانها!

يركضُ فجأة إلى النافذة...قد غفلت عن الوقت يبدو أنه حان موعد انتحاره!

_قبل أن تنتحر، قل لي أتحبها؟

لا يجيب!

لكن ملامحه أجابت..

سأقوم بدفنه للمرة الرابعة، لكن غداً لن أترك له مجالاً حتى لذكر الانتحار سأفعل ما بوسعي لأنسيه ذلك.

الرابع والعشرون من فبراير:

ليلة الاماني.

السابعة مساءً، ما أضيق الوقت!

كل يوم ذات الوقت الذي أستطيع فيه زيارة علاء، لساعتين وسبع دقائق فقط.

قلت: سأنتظره هنا على السرير!

يدخل على عجلٍ مضرجاً بالدم الذي كان عليه، لم يكن كذلك من قبل!

أمسح الدم الذي على رأسه بقطعة قماش وجدتها قربي!

يرتجف ويجتمع إلى نفسه، لا أعلم كيف أهدئه؟

مضى على حالنا 7دقائق حتى هدأ، وأصبحت الساعة 7:16دقيقة.

قلت له: أتعلم ما أمنيتي؟

نظر إلي بعينيه الدامعتين، كانتا تقول ماهي؟

قلت: أن أسير ليلاً في طقس جميل أبوح بكل ما أشعر به.

شدّدته من يده، ألبسته ثياباً من خزانته، ثم سرحت شعره المتلبد، وها قد صار جميلاً كما كان.

خرجنا إلى الطريق الخلفي لحينا، كان هادئ كملاك!

كلّما رأيته شعرت بالشفقة عليه، سألته: ما اسمها؟

_أجابني: قد نسيت!

_حدثني عنها.

_ قال لي متنهداً: دعها إلى يومٍ ما.

شعرت حينها أنّه بات يؤمن بالحياة، أو أنّ الحياة قد أوقدت نورها في صدره...

_ماذا تتمنى؟

_أتمنى أن ألعب مع الأطفال، أو أن أسير بين الناس، أن يسألني أحدهم عمّا أفعل، أيّ شيء عدا الموت.

ما شدّني أثناء حديثه اهتمام الناس لوجوده، أيعقل أن يأتي يومٌ ما لا يهتم الناس بي؟
على الأقل لأشعر بالوجود.

حبّ الأخرين فريضة وحبّهم لك فريضتان.
هذي الحياة لم تكن لك وحدك، ولم تكن لأي فردٍ منهم، مهما اختلفت مصالحهم أو أشكالهم، يلتقون بالحبّ أو المنفعة، إنّ لم تحبّ أحداً منهم، ولم يحبوك، فمن هنا تموت العاطفة.
من هنا تصبح الأرض منفى!

ما اتسعت الأرض إلا بالحبّ وما ضاقت إلا بالكّره.
نلتقي بالحب ونتوادع بالشوق، ونكّره الفراق من ألم الحنين..
هكذا خلقنا... وهكذا يجب أن نبقى.

خلال المسير لم ننتبه على الوقت، ولم أخبره صراحة، كنت أريده أنّ يبتعد أكثر ما يكون عن مكانه ذاك..

_أتسابقني؟ قلت له.

أصابه الذهول، وبدأ يضحك ولم ينتظرني حتى أبدأ العدّ، كان قد سبقني كثيراً، بت ألحق به ولا أستطيع حتى الاقتراب ولو قليلاً.

كان صدى ضحكته يدّوي في أذنيّ، أخيراً أمسكت به.
قد تباطأ قصداً، أخذ بيدي وبدأ يسير، كنت قد تعبت فاستأذنته بالوقوف قليلاً...

ركض فجأة. لم يخطر ببالي أنّه يركض باتجاه غرفته، اختفى عنّي في منتصف الطريق، حتى رئتاي لم تساعدانني في الركض، كلّما أسرعت قليلاً، يهنّ جسدي فأستند إلى جدار أو شجرة، أو حتى أيّ شخصٍ في مسيري...

علمتُ أنّه أراد أنّ يصل قبل الوقت حتى ولو بثانية!
وصلت الغرفة كانت مقفلة جيداً، بتّ أناديه لكن دون أن اسمع ولو حسيساً صغيراً...

خفت أنّ يكون قد القى نفسه من النافذة، هرعت لتوي إلى أسفلها، لم أجدّه!

حتى الدّم الذي كان يهربُ من جسده اختفى حينها، شعرت بشيءٍ من الهدوء، توقعت أن يكون هناك في غرفته، بتّ أناديه من الأسفل، لا رد!

سأذهب للباب وأنزع قفله، أثناء دخولي لمنزله كانت الساعة تشير إلى التاسعة والثلث.
غريب!

في عادة الأيام يكون ميتاً في الأسفل، حملت الطاولة وبدأت أضرب القفل علّه ينزع من مكانه، لا جدوى.

حظيت بمحرك الماء "المضخة" يبدو أنّه كان معطلاً فوق رف المطبخ، هنا كُسرت مقبض الباب، بعدها نزعت القفل ودخلت، كانت الغرفة على ما تركناها سوياً.

حاولت التأكد من وجوده في الأسفل، لم يكن هناك. علّه ظل الطريق، فمنفاه هنا.

الخامسة والعشرون من فبراير:

كنت قد نمت البارحة عند عتبة البناء، إنّ نسي مكان منزله، علّه يعرفني على الأقل إذ مرّ من هنا، لا أخفي سراً أنّ الكلاب في منتصف الليل خلقت ضجيجاً كبيراً، بقيت إلى ساعات الصباح الأولى حتى نمت جيداً.

لم يأتي في هذه الليلة أيضاً، أصبتُ بالزكام جراء البرد الذي نخرّ في جسدي في أوقات انتظاره.
ها قد مرّت الليلة الأخرى دونه...
أيعقل أنّه عاد إلى المكان الذي تفارقنا فيه؟
تفحصت المكان ذلك جيداً دون أنّ أجده أو يراه أحد.
عدت إلى غرفته، لعلّي أجد أيّ شيء يدل عليه، لا شيء سوى رواياته التسع!

ترى أكتب شيئاً يدل على مكانه فيها؟

لا شيء سوى الورقة التي أفضت إلى انتحاره وأخشى قراءتها.

سأحاول البحث بشكلٍ أوسع، سأخبر آمن المنطقة بذلك، ثم بعدها أذهب للمساجد والكنائس لأخبرهم عن فقدانه فلربّما مرّ بإحداها ونام هناك، أو يعلنوا فقدانه عبر مكبرات الصوت.
إلا المشفى فهي أخر خيارٍ لي، لربّما لأذّه كان يموت ويعود،

أو في مقبرته، سأذهب إلى هناك.
لا شيء يلفت الانتباه، حتى قبره مازال جافاً!
الحسرةُ والضياع نوعٌ من الجنون المؤقت، تفضي بنا أعمالٍ عديدة لا نعيها إلا بعد فعلها.

ما علاقة المشفى أو المسجد أو حتى الكنيسة والمخفر بأمره؟ من أوصل الرسالة؟ ومن سكب الحبر عليها؟ ومن ذاك الذي في قبره؟ وكيف يحدثه الناس وهو في برزخٍ أخر؟
كيف له أنّ يخلق مرتان!

بعد مرور 3 أشهر:

كنت قد نسيت فيها ما حدث، كان جلّ تفكيري معرفةُ السبب الذي جعله حياً بشكلٍ غريب!
لكن في يوم 13 من مايو، اتصل بي رقم غير معروف، كنت اسمع موسيقى فقط!

الموسيقى اثناء الاتصال تربكني تماماً...
قرأت مرةً عن الخطف من إحدى وسائل التواصل الاجتماعي:
أنّ في إحدى حوادث الخطف في أميركا فقدت فتاة في مقتبل العمر، ظلّ الأمن يبحثُ عنها لثلاث أيام، بعدها بدأت تكثر الاتصالات على ذويّ الفتاة.

كل الاتصالات عبارةً عن موسيقى هادئة ومتكررة، ظنّت السلطات قبيل ذلك أنهم سيحصلون على مفاوضة مع الخاطفين، إلا أنّ ذلك الأمر كان رسالة على مكان الفتاة حينما كانت على قيد الحياة، لكن لم يعلموا إلا بعد فوات الأوان.

من ذا الذي سيتصل بي؟
ماذا يريد؟
أيعرف خبراً عن علاء الذي انتحر؟
حين اتصل للمرة الثانية، وعندما بدأت تظهر ذات الموسيقى، حاولت ترجمتها إلى سلمها الموسيقي، الغريب أنها تبدأ "بلا" وتكمل نفسها إلى نهاية السلم "دو" وعلى شاكلتها هذه تعاد.
ما كان منّي سوى الإصغاء؛

لمّ قد يستخدم أحدهم الدرجات الثلاث الأخيرة من السلم الموسيقي، ويعيدها؟

في الواقع أخذَ الأمر ساعة حتى علمت أن من كان يتصل هو علاء!

بات في البرزخ " المجهول"، لو لم نركض سويةً ولم أؤخره عن وقته ذاك لأخبرني حقيقة انتحاره، لو تركته يفعل ما كان يفعله من قبل، لبتّ الآن أقل هدوءً من اضطرابي هذا!

لما كان اختفى، لكان هو الوحيد الذي أخبره بأنّني احب الحياة كما اريده أنّ يحبها.
لعانقنا سويةً أحلامنا وآمالنا التي سنبنيها في ساعاتنا القليلة تلك.

كانت الغرفة تقع في الطابق الثالث، ودرجات السلم الموسيقي من "لا" إلى "دو" كانت 3 وإعادة الموسيقى عدة مرات تنبئ بالانتحار المتكرر الذي كان يفعله!

ووقت الاتصال كان في التاسعة وستة دقائق تماماً ويستمر لدقيقةً واحدة؛ ذاك الوقت الذي انتحر فيه!
بعد حادثة فقدانه، كنت قد أغلقت المنزل ونوافذه لم اترك شيئاً فيه يرى الضوء!

سأعود إلى المدينة، لم أذكر أنني قد تركت مدينتي الندى، لنفور الناس منّي على اعتقاد أنّي مجنون، لا ألوم

أحد على ذلك، في الحقيقة لو سألني أحد الأشخاص: هل أنا حي؟

فحكماً سأقول عنّه مجنون؛ لا أحتاج أنّ أبرهن له أن مجرد استفساره عن الأمر يثبت أنه حي، فلو كان العقل يعمل بعد موت الإنسان، لاستطاع البشر تفسير معالم البرزخ الأخر، حينما يحظى أحدهم بالحياة بعد الموت وقبل دفنه، لا شك أنّ مصطلح الموت مصطلح مخيف.

كنت غادرت المدينة على متن القطار، لكن لم يحالفني الحظ في السفر مبكراً تعطلت الشبكة التي تصل المدينة بمحيطها، وأستغرق حجزي يومين كاملين.

كانت حركة القطار المسرعة تزيد الثقل على رئتاي، أشعر بأننّي أنا من أحاول الوصول إلى أمرٍ مهم، كان المسافرون قربي يزعجهم تنفسي الزائد، وإحضار المزيد من الهواء عبر عنقي الصغير الضيق.

أحضرت المضيفة بعضاً من الضيافة المعتادة في القطارات، قطعتي شوكولا وكأس ماء...لكل شخص على متن ذلك القطار، وأعتقد أنّ الضيافات تكون على قدر مكانة الركاب..

لو لم يحضروها كنت سأكون بأفضل حال!

أتمنى لو لم أحتج إلى كأس الماء، فارتعاش يدي ووقوعها على قدمي وقدم الراكب الذي بجانبي، كانت تمتمته المتواصلة تحمل ذماً طاعناً في مشاعري، لم أستطع ولو لمرةٍ واحدة النظر في عينيه.

حقيبته التي تكمن في رفّ الأحمال فوقنا تماماً، أردت أنا أنّ أحملها له، وأنّ اجعل الموقف عبارة عن اعتذار عمّا حصل، لكن ما يحمله من خلقٌ ضيق، جعل كافة الركاب في المقطورة يعلمون ما حدث حينها،
لا ألومه فيما فعل.

"الإنسان إذا ما أخطأ ضاقت مساحة تفكيره، ورأى اللوم يأتيه من كل شيء حتى إنّ تعثر بغطاء سريره، أحسّ بلومه له! "

وصلت في الواحدة والنصف ليلاً، كان في محطة الانتظار الكثير من سيارات الأجرة، كل سياراتهم جديدة وكلهم أرادوا الاحتفال بي، طمعاً أنّ يحظى أحدهم بي، أقصد بالنقود التي معي..

قلت في نفسي، سأبحث عن أكثر شخصٍ أراه يستحق، سأذهب إلى آخر شخص.

ما شدّني أثناء ذهابي وقوف سيارة أخذ الزمن منها ما يستحق، حتى الرجل كان في حالةٍ يرثى لها، يقف كالباقيين ينتظر شخصاً مثلي للقدوم معه.

أحسست أني انبذ من الذين احتفلوا بقدومي، يبدو أنّه مثلي تماماً الكلُ ينفر منه، كان لطيف الكلام وحسن الوجه، حتى حركات يديه وجسده جميلة، شعرت بالغيرة منها أشعر أنّ فيها من الوقار والحكمة ما يمتلكها أحدٌ من قبل، في الحقيقة ظللت أتدرب عليها كل طريقنا، كانت جمله الواحدة تلو الأخرى

تلامس قلبي، رأى أثناء كلامه، كلتا عيناي غارقتان بالدمع الذي احبسه قسراً، لكن لا يلبث إلا ثوان قليلة، قال لي حينها: لا تدع الدمع يحرق مكانه، هو حبيس الذكريات...

ربّما يود الإنسان الابتعاد عن الألم، مهما تعددت اسبابه، لكنه في لحظةٍ ما تجده، يفعل بشكلٍ غير إرادي ما تستجوبه نفسه ابتغاء الالم والأذية، دائماً ما يحاول أخذ الأمور بمنحىً سليم، رغم ما فيها من السوء الظاهر والمخفي في كلتا الحالتين، كالقنبلة الموقوتة تماماً.

اندثار الألم في علن الإنسان أو شكله، بطريقةٍ ما ربّما عبر الضحك، أو تحضر جسمه لصنع جزءٍ قليلاً من السعادة التي يبنيها لنفسه، لا تكون دائماً صحيحة، أو بالأحرى:
" لا يختفي الألم بكامله من الإنسان، ربّما يظهر عبر تجاعيده أو خصل الشيب المتناثرة، أو في شفاهه الباهتة"

لكنها تبقى دائماً ظاهرة حتى في أثناء كلامه تخرج كمّا الوهج المتطاير من أزفة النيران المتهالكة، هكذا عبر جسده!

قد طال الحديث بيننا، إلا أنّنا وصلنا إلى الفندق المتواضع، وقد وعدني بألا يغيب عنّي، سيأتي في كل مرةٍ يكون فيها قريباً من هنا.

كان يعرف مالك الفندق، إذ ولا شك يملكان صلة قرابة كبيرة بين بعضهما، فقد كانت المواضيع التي يفتتحانها، ويغوصان فيها من أمرٍ لأخر دون مقدمات متهالكة، تبعث في النفس الجواب دون تساؤل.

بالكاد كنت أتابع الحديث.

كنت مرهقاً حتى من التفكير أو تذكر من أنا، حاولت مراراً أن أشعر بالراحة بشكلٍ مجبر، لأتابع قليلاً من الأمور المهمة، مثلاً: أين أنا، أو سأحمل الحقائب وأذهب بها إلى حيث يذكر لي مكان الحجز الخاص بي.

حتى أنّه لم يطلب منّي المال رغم نسياني لتذكيره بذلك.. قال لي وقتها: الغرفة السابعة في أخر الممّر، احمل حقائبك إليها.

كانت إحدى حقائبي ثقيلة جداً كادت تقسم ظهري، حملتها على عجلٍ لأتخلص من النقلة المرهقة التي لم تعد تنتهي!

أصابتني الحقيبة في قدمي اليسرى، لم أكن أحمل الضغينة كعادتي على حالي هذا.
لا أعلم!

يبدو أن رحلة الإنسان من عبثٍ لأخر، تأخذه إلى اللاوعي المرئي، أو مقارنة تفاصيل الماضي بتقلبات الحاضر..

لحق بي إذ صوته في مناداتي قد سبقه في علمي في نسيان مفاتيح الغرفة، كانت هرولته ترسل لي براءة صدرِّه من رداءة الزمن.

إلى الآن لازال هنالك أناسٌ يحاربون الحياة لأخذ عفويتهم الكاملة، دون أن يلحقوا بالسرب أو القطيع المنقطع بفضلهم.

مازالت الأرض بخير، مادام العفوية والبراءة في نفوس البشر حيّة.
كان فتح الباب الموصد مشكلةً حينها، إذ أن المفتاح قد علق وسبب الغضب لصاحب الفندق، لم يخطر ببالي أنّ أسأل عن أية عملاء لهذا الفندق الصغير، فلاريب أنّ العم هنا يستمتع بعمله في رعاية الفندق.

أظن أيضاً أنّ لديه ولداً واحداً، فقد كانت الصورة التي يعتني بها من تطفل الغبار كفيلة بإخباري عن ذلك!

لا عجب أنّ بنطلونه الطويل ذو الأزرار الكبيرة، وقبعته الصفراء التي تتوسطها كلمة الحب باللاتينية، وكنزته التي تحمل عصبة الكره بأحرفها المشتعلة على السواد المتدرج لتلك الكنزة المرتبة؛ تخبر بأذّه المدللّ الوحيد على رتابة عمياء تتخطى الرتابة الظاهرية...

على محبةٍ تعتنقها بوادر خوفٍ تتجدد على أسفه الأسباب
، يبدو أنً الخوف أحياناً يخفي نوعاً من الاعتناء الظالم خلفه..
ها قد فتح الباب.

قال صاحب الفندق الذي لم أعلم ما أسمه إلى الان: زبائن الفندق قليلون جداً، وصدأ الأقفال يزيد في تعطلها.

أومأت برأسي رغم أنّي لا أهتم بكل ما يقول، ما يهم الان هو أنّ أنام جيداً..
فلدي نهارٍ طويل أبحث فيه نفسي.

أعطاني المفتاح بطريقة غريبة، فتح يدي ووضع المفتاح فيه وأغلقها بهدوء.
دفعت الباب بيدي ومضيت إلى السرير فوراً، أوقعت جسدي بكامله عليه، غفوت على الفور.

14 من مايو:

الطائرة التي تحملني سقطت عند أول مطب هوائي إذ أن روحي لم تكن حاضرة حينها، جسدٌ يسقط في أرضية الطائرة، ويتقلب فيها، لكن النار كانت تدخل وتخرج دون أن تصيبني فقط تبعث في نفسي رعبةً ورهبةً من لهيبها الضخم..

قد طال سقوط الطائرة، ما دفعني للقيام والنظر من النافذة، كان منظراً ربيعياً غريباً، يتخلله صخب الورود المتكسرة من مسير الطائرة فوقها.

هنا توقفت الطائرة، سرت نحو الباب وفتحته لكن لهيب النار هذه المرة قد أحرقني..
كان وهج الشمس هو من أيقظني من هذا الحلم الغريب!
أشعر بالخدر الكبير، وأضلعي المتكسرة تكاد تقطع نفسي..

تذكرت حينما استيقظت أنّي لم أغلق الباب ألتفت نحوه، وإذ به مغلق!

كان صاحب الفندق من أغلقه، سحبت نفسي من فوق السرير على الأرض عليّ أحظى بقليلٍ من برودة الفيء، خمس دقائق كفيلةً بإرجاع قليلٍ من الطاقة التي تحملني لأكمل هذا اليوم!

"روح الإنسان خفيفةٌ جداً ومتشعبةٌ فيه، وأيّ أذيةٍ مهما صغِرت تحملها إلى الحزن والتعب"

يُطرق الباب الآن: دقات خفيفة ومتناسقة، بعد ثانيتين، تُثقل الطرقات..

أنهض بصعوبة من تكسر جسدي أثناء خدر النوم هذا، أمشي بميلانٍ وتعب، أمسك قبضة الباب وأفتح الباب بهدوء!

العم كريم: صباح الخير

_صباح النور

_تعال لنفطر سوياً أعددت الطعام بنفسي.

_حسناً "مع ابتسامةٍ لطيفةٍ أبديها"

عجباً لم أرَ في حياتي كمثل حنان هذا الرجل!

أشعر بالانتعاش قليلا!

سأبدل ملابسي وأذهب للإفطار معه.

أين الحقيبة التي آذت قدمي، أبحث عنها ولم أجدها!

أيعقل أنّ صاحب الفندق أخذها؟

_عم كريم، أتعلم أين حقيبتي؟

_ألم تنظر أمام الباب؟!

عدت إلى زاوية الممر، ها هي، لم أدخلها معي، كان التعب مسيطراً عليّ.

_ها هي عم، شكراً لك.

سأتحمم بسرعة، إذ أنّ العم كريم ينتظرني هناك دون أن يأكل!

أعجبني تصميم الغرفة.

باب الدخول في الواجهة شرفة مطلة على الشارع الأخر، إذ أن ارتفاع الشرفة عن سطح الطريق لا يتجاوز التسعين سنتيمتر.

هذا يفضي لوجود قبوٍ أسفل البناء، غريب! لم انتبه، كان من الممكن أثناء دخولنا لذلك المكان أن أرى درجاً يقود نحو ذلك، مساحة الضوء هنا غريبة تصل إلى نصف الغرفة فقط!

رغم أنّ بعض المهندسين المعماريين يحبذون إضاءتها طبيعياً بشكل كامل إلا أنني على العكس أحبذ أن تكون لنصف الغرفة، إذ أنّ أيام الصيف الحارة تجعل من تنفس المرء عبئاً عليه، وحرارة الشمس في هذا البلد العربي لا تنفك عن وهجها القوي

حينها يكون عليه أن يهرب إلى الجهة الفيئةِ من الغرفة، على عكس ما تفكر، إذ أنّ الستائر ستحجب الضوء، إلا تلك الرهيفة فإنها لا تخفف من حرارة الشمس، لكنها تجلب الضوء.

الكهرباء هنا نحاول دائماً العثور عليها كصدفةٍ مفرحة، أحياناً ما أتمنى أمنية وأضغط زر الإشعال، فإذا اشتعلت الكهرباء بتلك الصدفة ستتحقق الأمنية وإذا لم تشعل فلن تتحقق.

وإلى الجانب الأخر باتجاه اليمين هناك الحمام بشقيه.

اتساع الغرفة يضيف للنفس نوعاً من الشعور الذي يعطي الطمأنينة للإنسان أنّه مازال حراً، قد كانت واسعةٍ جداً.

الاعتناء بالديكور اللطيف والبسيط أهم من أنّ يحمل الثقالة والفخامة.
هنا على وجه الخصوص أشعر بأن الديكور إن كان يحمل طابع الفخامة فإنّه يصيبني بنوعٍ من الالتزام بمكانٍ مخصص وجلسةٍ مخصصة والاعتناء الزائد، على عكس البساطة التي تحتويني بكل هيئاتي المتعبة!

قد أكون مبالغاً في ذلك برأي شخصٍ ما، لكن الحقيقة أن الإنسان مهما كان يحبُ أن يصنع الحرية في كل شيء، حتى في هذه الأشياء البسيطة والتي لا نلقي لها بالاً في تغيرنا، وتفاعل أنفسنا معها أو تجاهها.

وفق علماء النفس، فإنّ الألوان أيضاً تغير من تفكير الإنسان.

لا شك في أنّ الأثاث الثقيل والفخم يشعر بالرقي لكنه نوعاً ما يشعرنا بالاعتناء القسري الذي سرعان ما يفضي إلى الخروج عن ذلك، كل هذا على حد رأيي.

نسيت باب الغرفة مفتوحاً، لا شيء أخاف عليه.

كريم: نعيماً أيها الشاب.

_أنعم الله علينا سوياً يا عم، أعتذر لتأخري، لكنك تعلم. أتيت البارحة متعباً وغير قادر على النهوض من الفراش...

"قاطع كلامي"

قال: ابدأ بالفطور، ألم تشعر بالجوع إلى الان!

شعرت بالخجل أكثر.

_حسناً عم تفضل قطعة الخبز.

_بارك الله بك.

أثناء تناولنا الفطور لاحظت على كأس الماء شيئاً غريباً، كانت حافة الماء ترتفع لأعلى الكأس رويداً رويداً، ظننت أن الطاولة تميل تدريجياً، رفعتها عنها، ثم أعدتها، بدأت من جديد ترتفع رويداً رويداً.

رفعت الكأس نحو فمي شممتها لم أجد أي رائحة، لامستها شفتي هي الأخرى لم تتأذى، لا أعلم هناك شيئاً غريباً.

بعدما أنهيت فطوري طلبت الإذن من العم كريم في الذهاب للغرفة، قال: بعد أن نشرب الشاي!

هنا العم كريم يصنع شاي لذيذ، يمتاز بلون أحمر مائل إلى البني في شفافيةٍ مشهية، حتى تراقص الدخان فوق الكأس، يجعلك تقطع عليها تراقصها كي لا تشد عليك في جذبها لفمك.

من الغريب أننّا شربنا الشاي فوق الطاولة ولم ألاحظ ما لاحظته في الماء!
للعم كريم أحاديث كثيرة لكنه ينأى عن ذكرها، إذ كلما خرجت منه سيرة كمتها فوراً، لا أعلم، يبدو أنه يخشى أن أخذ عنه صفة ثرثار ربما على ما يعتقد.

بعد شرب الشاي، حاولت إعادة الأواني بعضها إلى البراد والبعض الأخر على بلاطة المطبخ لتُجلى، لكن أبى العم كريم أنّ ألمس شيئاً.

"أحياناً حينما تقع عليك المشاكل ولا تجد لك سبيلاً للنجاة منها، يرسل الله لك عباد طيبي القلب جميلو الأخلاق يرون في انزياح همك وبشاشتك أعظم ما قدموه من سعادة للأخرين".

لهذه الحياة قوانين مختلفة، ونظريات طالما تُبنى على تجارب قد تكون محدودة العصر، وبعضها الأخر أبدي، لكن تبقى نظريات وفق رؤى من حاولوا تفسير ما يعيشون به أو عليه.

فلتكن نظرية "المصفوفة العميقة" احدى النظريات التي تفسر خطى القدر وخوارزمياته المتعددة والمتشعبة.

أولاً: ما المصفوفة؟

المصفوفة مجموعة عناصر عددية مرتبة ضمن جدول يحوي عدد من الأعمدة وعدد من الأسطر، ورياضياً يُرمز لكل عنصر برمز معين، ويكون الاختلاف فيما بينها حول مكانها وموقعها إذا

ما كانت في السطر الأول أو الثاني وكذلك بالنسبة للأعمدة، حيث يتبع أسفل كل رمز دليلان أيمن وأيسر، يكون الأيسر دلالة على رقم السطر أما الأخر إلى رقم العمود.

ما يهمنا من ذلك كيف لو كان الإنسان عبارة عن مصفوفة، حيث يكون لكل عنصر وظيفة معينة تترتب وفق أهميتها ومكانتها.

أهم شيء لدى الإنسان أول خروجه للحياة _وهذا لا يعني خروجه من الرحم بل بدأ تكونه داخله_ هو الغذاء.
غذاء الجنين دائماً ما يُحمل بكل ما يحتاجه من طاقة وأوكسجين للدم.

إذاً أول ترتيب في المصفوفة يكون الغذاء في السطر الأول والعمود الأول لذا يكون هو الرمز الأول الذي يحمل الدليلين واحد واحد.
في التالي بذات السطر الأول يكون الرمز الثاني هو المشاعر بكل ما تحويه من حب وخوف وكره وغيرها مما يحتويه الإنسان في ذاته،

ويكون ترتيبها سطرٌ أول عمودٌ ثاني إذ تحمل الرقم من الأيمن للأيسر اثنان واحد.

يكون الرمز الثالث هو العقل، وهنا لا أعمم العقل بكل ما فيه، بل أخصص ردود فعله تجاه فهمه لأمر معين.

قد تكون المشاعر ضمن هذه الخانة، ولكن وجب عزلها
لأنّ ترتيبه هنا ذا معنى إذ إنّ هنالك من البشر من أخذ الله منهم صحوة عقولهم فصاروا مجانين، ولكن مشاعرهم مازالت في صحوها.
لذا يأخذ العقل الترتيب بالدلالتين من اليمين لليسار "ثلاثة واحد"

ليكون السطر الثاني معبراً عن حاجات الإنسان.
العمود الأول السطر الثاني أول رمز حاجاته الجسدية وتتفرع ابتداءً من الحواس الخمس إلى حاجته للشعر والأظافر وغيرها.
الترتيب من اليمين لليسار واحد إثنين.

الرمز الثاني: حاجاته الروحية: الاحتواء، الحرية، الهذيان، الاصطفاء، الشجار...

الترتيب اثنان اثنين.

الرمز الثالث:

_حاجاته للأخرين: وهنا ما يبرهن أهمية الخوارزمية التي تتشعب من المشاعر إلى العقل ثم إلى الحاجات الروحية فالجسدية وتنتهي بالكماليات.

ترتيبه ثلاثة اثنان.

السطر الثالث: الكماليات.

يكمن الترتيب واحد ثلاثة في الكمالية الجسدية دون نقص، ما إذا نقصت تُنقل لمصفوفة مشابه ذات أهميةٍ أقل، وعلى ذلك تقاس بقية الرموز.

أما الترتيب اثنان ثلاثة في الكمالية الروحية.

والترتيب ثلاثة ثلاث: في الكمالية الدنيوية وهنا للسعة الكبيرة التي يحتويها هذا الرمز تكون التشعبات أكبر من غيرها.

ما نتج لدينا إلى الان مصفوفة رياضية بثلاثة أسطر وثلاث أعمدة، هي بداخل كل شخصٍ فينا، ولا يعني هنا بالترتيب أنها تعبر عن الفقدان الكامل وإنما الحاجة أو ردة الفعل.

لو أردنا تفسير انتحار علاء، علينا فهم الأسباب التي غيرت من ترتيب المصفوفة أو أنقصت من رموزها أو درجتها!

_عم كريم، أحاول ربط البشر بالرياضيات.

_كيف؟

من خلال مصفوفات رياضية تتشعب لتدخل في كل شذرة للبشر، ربما لن أفلح في التفسير أو الجمع!

_تفعل ذلك من أي ناحية؟

_ناحية ماذا؟

_اسمع بني، كل شيء يفعله الإنسان يخطئ به، الحب، الحرية، الصدق، العداء، التعالي، التواضع...إلخ، أمور كثيرة يفعلها لأجل شيء ما، شهرة.. رضى ... إدمان..

لكن لا تدوم تلك الأشياء بتمامها الصحيح، لكن إن فعلها تضحية لأجل شيء يحبه، يكون قد أوصلها لتمامها على الرغم من أنها قد تحمل له الخطأ!

ذلك يعني أنّ عليك جعل عملك هذا في سبيل شخصٍ يحب ما تفعل وأن لم يكن، فأصنعه في خيالك لا تهبه للنسيان!

كان وقع الكلمات عليّ كصدمة وعي كبيرة، باتت تدخل الكلمات إلى رأسي أكثر من أي شيء اخر.

أذكر أنني كنت أحدق بعينين واسعتين إليه، فوق طاولتي التي تكاثرت الأوراق فوقها.
لم ينتبه لي فقد كان يبدل القفل بأخر جديد، لم يعر انتباهاً لدهشتي من كلامه!

على الأقل بات لي الان ما اربطه وفق مصفوفتي:
"التوافق" و "التعلم الدلالي"
لعل كلمة الدلالة بسيطة إلا أنها ثقيلة الوظيفة، قد يخفى على الإنسان الكثير من العلم داخل رأسه يلقنه فرادى غير مجتمع ولا

مركب ولا متناسق، وهنا يكون التناسق أمراً صعباً للغاية، تحتاج للبرهنة والإثبات بمدى صحتها وصوابها ومدى خطأها وأغلاطها، ليكون البشري عالماً ذا علماً مبعثراً..

وهذا ما يبحث عنه الناس، التناسق بالدلالة!
قد نرى أنّ هنالك أطفالاً بعمرٍ يافع، لكن الذكاء لديهم ينافس من هم أكبر سناً وأكثر علماً.

السبب في ذلك التناسق والدلالة التي تكون حبال الوصل بينها ومدى بقاءها حية دون أن تهدر إلى الذاكرة المؤقتة.

ولا شك أنّ التوافق هو الدلالة الخارجية التي تحمل البشري لأخذ التعلم الدلالي كوسيلة لكسب المعرفة بشكل أكبر من المعتاد وأقوم مما يفعل بالعادة.

قد تكون أكثر صحة من غيرها، وبذات الوقت الذي يجعل من التعلم لدى نفس البشري لكن بتخالفٍ ملحوظ أمراً صعباً للغاية لأنّه يتطلب جهداً ووقتاً كبيرين!

هنا أرى أنّ التخالف أمرٌ مهم أيضاً، ذاك يجعل التعلم سريعاً، وهذا يجعله بطيئاً ولربما هذا البطء يخلف جهلاً مؤقتاً، يزول بزوال التعلم الرصين، والجهل لا شك أنّه نعمة، قد لا يُعلم مدى فضله بسهولة.

التوافق ما بين شخصين ليس بالضرورة تشابه الرموز كاملة! وإنما التشابه ضمني في الرمز 13، في ردود الفعل تجاه أمر معين، وقد يكون التشابه جسدي كما الرمز 31.
وهذا ما يدرج ضمنه الجنس الواحد، ويتفرع للأمور الأخرى التي تبحث في تكامل جسد البشري ونقصانه.

أما في الرمز 12 فقد تتلاقى مصفوفتين تتعاكس في هذا الرمز.

مثلا: لو وجد شخصان أحدهما يحب الأخر والأخر يبغضه بغضاً شديداً، وقد التقوا بالكثير من الأشياء، لكنهما يختلفان في هذا الرمز.

لكن من المستحيل تشابه المصفوفتين بالرموز التسعة بشكلٍ كامل.

إنّ حدث فذاك الأمر يدل على وجود تؤام للأول، لكن سرعان ما تتغير على المدى البعيد، في الرموز 12 و22 و32 كبداية وأولوية.

انتحار علاء كان سلسلة من التغيرات التي حدثت لهذه المصفوفة.

أولاً:

كان سبب كأبته الفتاة التي ظلّ يكتب عنها في رواياته التسعة. لكن التاسعة لم تنته وجعل يكتب بحبرها وصيته الأخيرة، ولعل الورقة الأخرى التي كتبها بلونٍ أخضر كانت غريبة.

حاولت في الليلة التي سبقت سفري قراءة رواياته بشكلٍ سريع، ذكر في الرواية الثانية التي تحمل اسم "الندم اللا مرئي".

أنّها كانت تلبس الأخضر في أول سنتين لها في الجامعة، كانت انتقائية لهذا اللون، ورغم أنّه لا يحبذ رؤيتها وجهاً لوجه، كان يحب ذاك اللون كثيراً ويحب أنّ يراها من بعيد تسير بخطى جميلة ذات أثرٍ سريع، أي أنّها سريعة المشي، أقربه للعداء...

لعل سبب اختياره لّلون بات معروفاً، لكن شدّني عنوان الرواية هذه "الندم اللا مرئي".
في الرواية الأولى ذكر كثيراً تقربها إليه، ومحاولتها كثيراً التواصل معه بشكلٍ غير مباشر.

قال في احدى الصفحات: رغم أنها لا تتكلم كثيراً حتى مع الفتيات اللواتي يكثرن السلام عليها، يبدو إنها ووفق العادات التي تتبعها أنّ التكلم مع الغريب أمرٌ لا يجوز وعليه وإنّ ادعت الضرورة فليكن مع الفتيات، وإلا فذلك عملٌ تحاسب عليه..

إلا أنها تكلمت مع صديقه، هو الأخر يحمل ذات التقاليد، ولعلّ السبب في قربها له أنّه محترمٌ كثيراً وخجولٌ بعض الشيء، لكنه يحمل الجرأة في بعض الأمور...
هذا الأمر جعلهما يلتقيان في الأحاديث، كنبذ معيد في الجامعة أو مدح أخر..

حاولت هي مراراً جعل بعض الرسائل غير المباشرة تصل عبر كلامها مع صديقه أن تصل له، لكنه لم يستجب.

إما أنّه خائف أو خجولٌ لحد كبير، أو لا يملك أدنى حبٍ لها آنذاك، "الندم اللا مرئي" قد أكثر من تبيان ندمه على ذلك الأمر، وجعل يفسر صدماته المتتالية أنّها عقابٌ له على غباءه...

لم يظهر ندمه إلى العلن في تلك الرواية ولا أذكر أنّه أخبر أحداً أنّه يحبها في كل الروايات الباقية حتى أنها لم تحمل اسم شخصٍ واحد انكسر أمامه.

إذا أراد ذكر ذلك فأعتقد في الرواية التي لم تنجز، أو لن تنجز بعد موته، إلا أنّ أكملها من يعرف القصة كاملة.
الرموز 12 و32 و22 قد أفضت إلى التشعب في 23و 33..
وهما أساسيان في الحياة.

العم كريم: تعال إليّ في مكتبي ألا يكفيك كل هذا التفكير على الطاولة البيضاء هذه؟
_حسناً سآتي!

هنا كانت لي فرصة للتكلم مع العم كريم وسؤله حول ما يجعل الشخص ينتحر؟!

_عم كريم، خذ هذه ورقة فيها تسعة رموز، تبدأ بـ 11، 12 13
والسطر الأخر: 21, 22,23

والثالث: 31, 32,33.

برأيك ما أفضل طريقة لجعلها سيئة؟

_أنّ أخرب ترتيب الرموز، مثلاً:

11.. 22... 31 للسطر الأول.

13.. 32... 33 للسطر الثاني.

21..12.. 23 للسطر الثالث.

_ماذا لو كنت تفكر بالانتحار، كيف سترتب هذه الرموز؟!

_في هذه الحالة أول شيء سأفعله، هو التفكير بالأخرة، لن تشدّني هذه الأشياء!

_بعد ذلك؟

_ سأفكر فيما جعلني أصل إلى ذلك؟!

_تماماً، وماذا بعد؟

_سأحاول محاربة نفسي، وإجبارها على فعل ذلك، إذ كان أمر الانتحار قسرياً، سيختلف فيما لو كان طوعياً.

_برأيك كم المدة التي ستنجز بها هذه العملية؟

_ يتبع هذا لهول الأمر الذي يصيبني، وقدرتي على مواجهته، قد لا أستطيع حتى التفكير في الأكل أو الشرب، أنّ كان هناك وقت لذلك!

_هذا جيد، هذا ما أريد.

_ لم هذا السؤال؟ لم تقل لي.

_هذا لأنك رتبت المصفوفة بشكلٍ غريب في البداية..

الترتيب:

غذاءك، الحاجة الروحية، الكمال الجسدي، وهذا الترتيب للسطر الأول يدل على أنك سجين في زنزانةٍ ما.

ترتيبك للسطر الثاني، 13.. 32... 33

يدل على أنك وصلت لمرحلة من التعقل والاكتفاء الروحي.

أما ترتيبك للسطر الثالث: 21. 12.. 23.

فيعني أنك تحتاج للأخرين: وهناك صفات عديدة" زوجة، أخ، ابن" لكن وفق الأولوية التي رتبت بها الأرقام هنا، يجعلك منك محتاجاً لزوجة.

وبرأيي، من خلال ذلك تبين لي أنك تمكث مدةً طويلة هنا وهذا ما أفضت إليه الرموز الأولى، ومن خلال الرقم 21 أرى أنه ليس لديك زوجةٌ الآن، أو قد مضى وقتٌ
طويلٌ على رؤيتك لها، أو لابنك الذي أراه في الصورة.
ناهيك عن الحكمة التي تحملها، وهذا أيضاً من خلال السطر الثاني الذي رتبته لتجعله سيء.

_هذا صحيح، كان لي ابنٌ واحد وزوجتي أخذته للبرتغال لتعالجه، كان يعاني من التوحد.
أخي هناك يدرس الطب، ويعالجون مثل هذه الأمور أكثر مما في بلادنا.

_كم مضى على رؤيتك لهم؟
_ثلاث سنوات ونصف، لكنّي أخالفك الرأي في أمرين:
أولاً: لست حكيماً.

ثانياً: بناءً على شرحك لترتيبي، فذلك معناه أنّ أي شخصٍ يرتب الأرقام كما فعلت فهذا يعني أنّه يملك نفس حالتي.

_لا عم، الحكمة رزقٌ من الله عزوجل وأرى أنك رزقتها، حتى أنّك لم تتفاخر بها وهذه من شيّم من يملكها، ثم إنك تعلم في نفسك مالا أعلمه ولا يعلمني أحدٌ إياه.

ثم إنّي أتمنى من الله أنّ يرزقني ما رُزقت، ولا تبخل عليّ بما يرشدني للصواب.

أعلم أنّك أخذت الأمور بمنحاها العام ولم تبحث بمعناها التفصيلي، ومن يرتب كترتيبك فذلك يعني أنّه بشكل عام وليس خاص يعيش ذات الأمور لكن بتفاصيل متعددة ومختلفة.

_كالأبراج السماوية؟!

_تماماً كعلم الفلك، حيث في دراسة الأبراج يبنون ترابطاً بين القدر وظهور النجوم وولادة البشر في وقت معين لظهور نجمٍ أو عدة نجوم بذلك الوقت، وأعتقد أن برجك الحمل

وهذا ما تبنيه المصفوفة ولكن بشكلٍ أوسع.

قد ترى أنّه من خلال ترتيبك دلّ على أنك في مكان أشبه بالسجن.
بالنسبة لك مكوثك لهذه الفترة الطويلة في هذا الفندق دون أنّ تخرج منه هو سجن، وهو أمر معنوي!

قد لا تحوي المدينة كلها روحك أو البلد بأجمعه، لا يقتصر ذلك على أربعة جدران، أو بيتٌ واحد.

لتعلم: قد يشبهك الكثير في حالتك هذه، وتختلف فيما بينكم الأمور الداخلية، قد يكون شخص لديه عائلته، زوجته، أولاده ويخرج إلى أي مكان يريد، ولكن الزنزانة تتمثل بضيق يُطبق على صدره، الروتين القاتل، المشاعر الباهتة، النفاق من حوله، الخيانة التي لم تعد تجد من يكره فعلها.

يا عم أعلم أنّي كثير الكلام، سامحني!
_لا تهتم، حتى أنا لدي الكثير لأقوله، وكنت أخشى البوح لأحد، تعال أعرفك على غرف الفندق ومن كان يقطنها.

_سقطت محفظتك!
_أين هي؟!
_خلف قدمك اليسرى.
_ها هي.

كان العم كريم يمتلك هدوءً غريباً يجعلك تتأمل في شخصيته، شعره الأشيب، والوقار الذي فيه، قميصه ذي اللون الرمادي بنطلونه الأسود، الخاتم الفضي، كلها ألوانٌ لها تأثير منعكسٌ على النفس، حتى حركته البطيئة تخبئ خلفها روحاً حكيمة.

_تعال معي.
_حسناً!

في المرة الأولى التي افتتحت فيها هذا الفندق كان علي تقديم أية عروض لاستقطاب الزبائن جعلت الأيام الثلاث الأولى من الافتتاح بشكلٍ مجاني لم يكن كل ما افكر به هو كسب المال بل حاولت جعل ابني يخرج من الأزمة الصحية التي كان بها

قبل أن يغادر للبرتغال لم أتوقع هذا العدد الكبير من الزائرين والزبائن

في الأيام الأول، جعلني ذلك أومن بأن هنالك شيء ما يستحق أن نحارب لأجله وأنّ الحياة بظروفها الصعبة دائماً ما تحاول إرشادك إلى طريق أخر أفضل لك من الذي تحاول الكفاح من أجله،

هنا في الغرفة الأولى مكثت سيدةٌ في ال 25 من عمرها مع ابنها ذو السنتين كان زوجها يخدم في الجيش كان يأتي مرة كل شهرين أتصدق كان الطفل حينما تحين إجازة والده، تكثر حركته وتتعالى فرحته، حتى وجه أمه لا تفارقها البسمة قط.

لكن السوء يكمن في رحيله، حينما يغادر لا تأكل زوجته أبداً ليومين كاملين وأحياناً ثلاثة أيام، كانت تتغير ملامحها بشكلٍ محزن.

في أخر مجيء له من المدينة التي يخدم بها "الندى" كانت إجازته أسبوعاً كاملاً، لكن لم يكن فرحاً قط،

أوصى زوجته بأن تحفظ التوقيت "التاسعة وسبع دقائق" لم تكن تعلم ما آل إليه،
ولا ما يفكر به..

انقطعت أخباره لسنتين كاملين، لكن بعد أسبوعين من رحيله، كانت زوجته ترى الماء الذي في الكأس يطفو إلى أعلى حينما تكون سعيدة، وأحياناً وحينما تكون حزينة تطبق أبواب الفندق بشكلٍ قوي، وتحدث داخل الفندق أشياء غير مفهومة!

مرةً وبعد قطعي للشجرة التي كانت أوراقها تملأ الساحة أمام الفندق وتتطلب مني التنظيف كل ساعتين، وجدت على الحجارة التي رصفتها لأضع لافتةً أخرى للفندق سائلاً كالدم في لونه وكثافته، كتب هناك: أهلكت روحي.

فيما بعد عرفت أنّه سائلٌ كيميائي يدعى " ثايو سينات الحديد" زوجته أخبرتني ذلك فهي مدرسة للكيمياء في

المدرسة القريبةِ هنا، لكن لم أعلم لمّ كتُبت هناك وبهذه الطريقة؟

في المرة الثانية وحينما كان الماء يحاول الخروج من الكأس بشكلٍ غريب رأيتها من بعيد تضع حفنةً من غبار أزرق اللون، وعندما وضعته بقي كما هو، فوراً أمسكت رأسها ونظرت نحوي بعينين شاخصتين..

سألتها: ما حدث؟!
لم تجب وهي تنظر إليها، ثم وضعت الكثير من ذلك الغبار وكان يتجمع في الكأس على حاله، حاولت تحريكه لكن لم يتغير شيء، هي كانت تعلم بشيء لكن لم تخبرني، والعديد من الأشياء الغريبة التي كانت تحصل هنا.

ابنها الذي كبر وأصبح يقارب الخمسة أعوام، كان لا يفارق باب الفندق ينتظر مجيء أبيه.
إلى أنّ أتت برقيةٍ من الجيش تخبر بأنه ووفق العرف العسكري في هذا البلد وبعد الحرب التي حدثت،
واختفاء الجندي كل هذا الوقت، فإنه يعتبر ميتاً..

رغم ذلك كانت تؤمن بأنّه حي، لكن حالة ابنها تغيرت بشكل كبير وسيء.

قررت أن تسافر وتعود لأهلها، وحين رحيلها أعطتني ظرفاً مختوماً بالشمع، وقالت بداخله وردةٌ وسلسلة من ذهب ورسالة.

قالت: أن أتى يوماً ما فدعه يرى الوردة أولاً ثم يأخذ سلسلة الذهب ويضعها في كفه ويطبق عليه عند قلبه، ثم يقرأ الرسالة..
ـ أن شعر بنا فسيعلم أين نحن!

ما فطر قلبي دمعها الذي لا يكاد يفارقها وهيي تتكلم حتى يداي اللتين كانتا تضغط عليها بقوة حينما أعطتني الرسالة تبللا من دمعها الساخن.
حتى هي الأخرى كانت تخالني سآخذ أجرة بقائها كل هذه المدة منذ دخولها حتى رحيلها لكن لم أخذ قرشاً واحداً

"المال لا يشتري الحياة ولا سعادتها ولا يغني إلا ضعاف النفس جاحدي المشاعر"

كانت كأبنتي حتى طفلها عوض غياب ابني الذي في البرتغال، توسلت كثيراً حتى لا ترحل لكنها كانت تخاف على صحة ابنها إذا بقي مدة أكثر هنا بين كل هذا!

تذكر هنا العم كريم مرض ولده، ثم أمسك رأسه بقوة، قال بصوت يغمره الحزن والبكاء: عسى أنّ يمن الله على ابني بشفائه، مازال صغيراً لا يقوى على كل ذاك الألم.

بكى كثيراً، ثم سكت وغلب تنهده وحسرته على تفكيره، توجه نحو الباب ليغادر، ثم تذكر أني موجود فأعتذر قال لي بعد ذلك: تعال كي أريك غرفة الظلام.

هذه الغرفة رقم 2 لا تلمسها الشمس أبداً كثيرة الرطوبة، الشيء الفريد فيها حدوث أشياء غير صحيحة بالمنطق، أول قاطنٍ فيها كان مدرساً للفلسفة، من الريف لكن السفر إلى

هناك يحتاج لساعتين ونصف، عدا عن الأجرة المكلفة، حبذا أن يسكن هنا، لأن أجارها رخيصٌ جداً.

عدا عن ذلك، كان كثير الكلام عن أخطاء الزواج وكرهه له، حتى أنه في كل صباح يأتي لطاولتي يتكلم عن فتاة تدرس هناك معه يكره حتى النظر إليها من شدة كره لعلاقة الزواج ثم بعد سنة تزوج منها ورحلا إلى الريف.

وسكن أيضاً محاسب في دائرة حكومية يتكلم عن الرشاوى وأصدقاءه المرتشين وفي أحد الأيام داهمت الرقابة الفندق بحثاً عنه ووجدوه، كان مختلساً رائعاً أختلس مالم يستطع حتى رئيس دائرته أن يسرقه.

" من يكثر الحديث عن شيء يكرهه، فإنّ الحديث ما هو إلا غطاءٌ على حبه الشديد له"

كان أخر زائرٍ هنا قطن ليومٍ واحد، دفع لي الأجرة عن ذلك اليوم قبل أن أطلبها وقال لي لا أريد من أحد أن يطرق بابي أبداً..

في اليوم التالي كنت أريد أن أنظف الغرف نظفت الغرفة الأولى وأتيت إليه، طرقت الباب لكن لم يفتح تابعت إلى الغرف الباقية وبعد أربع ساعات عدت إلى طرق الباب لكنه لم يستجب، خفت عليه.

أخذت مفاتيح الغرفة الاحتياط من خزنة المفاتيح، ثم فتحتها ولم أجد أحداً.
حتى في الغرفة لم يكن هنالك أثرٌ لوجود شخص لا على السرير أو المغسلة أو أيّن من الأشياء الأخرى...
لم يكن هناك إلا غصناً ذابلاً أسود اللون...تحت عتبة الباب، راجعت الكاميرات.

التي في الممر والتي أمام الباب وأعلى طاولتي، كلها لم أره فيها، أخبرت الشرطة بذلك الأمر، وقد قالوا لي أنّه بعد 24 ساعة سيعتبرونه مفقوداً وسيبحثون عنه، في
اليوم التالي حضروا إلى الغرفة وأخذوا أشرطة الفيديو ثم أخبروني أنهم سيهتمون بالأمر.

_هل وجدتموه بعد ذلك؟

_لم يجده أحد.

_ ألديك أشرطة الفيديو؟

_ نعم، أتود مشاهدتها؟

_ بالتأكيد!

ذهبنا أنا والعم كريم إلى الغرفة التي خلف حجرة الاستقبال، كان هناك الكثير من الأجهزة والسجلات، بدأ بالبحث عن الفيديو بتاريخ حضور ذلك الرجل إلى الفندق فوجده!

شغلنا ذلك الفيديو وكان ما حدث مدهشاً!
كان شيئاً غريباً ولا يحدث إلا في أفلام الخيال، كانت هيئة الرجل مخفية بشكلٍ كامل، كان العم كريم في الفيديو يعطه الورقة وكأنها تطير في الهواء، ثم هبطت إلى طاولة الاستقبال، وبدأ القلم يتحرك عليه، ثم تحرك القلم نحو سجلٍ قد دفعه نحوه، وبدأ الأخير كأنّه يوقع عليه.

هنا في الحقيقة حاولت أن أسال العم كريم عمّا إذا كان مخفياً في الحقيقة لكن حين نظرت إليه، كانت يداه ترجفان كثيراً وشخصت عيناه من هول ما رأى، كأنّه دخل في صدمة!

زاد وضعه سوءاً بدأ يرتجف أكثر من السابق وصوته يتعالى شيئاً فشيئاً.
سحبت كابل الحاسوب لأطفئه..

أصابني الخوف على حاله، بدأت بمناداته: عم...عم!
أحرك رأسه يمنة ويسرى لكن لا يصحو، هرعت إلى المطبخ أحضرت الماء له، لكن حين عدت وجدت أن لعابه قد سال، من الخوف لم تسندني قدماي لأقف جيداً.
اذكر أنني صرخت بصوت لازلت أخاف منه إلى الان..

صوت خوف به البكاء متوشح عدا عن رجفته التي كادت تغيبني عن وعيي.
كان كل شيء قريباً من عيني أكثر من اللازم، أسقيته الماء، ثم أخذته إلى غرفتي.

كان العم كريم ثقيلاً ولم يكن واعياً بشكلٍ كامل، كانت قدماي بالكاد تحملانا سوياً، حين وضعته في فراشي، أمسك بي من يدي ومن ظهري:

لا تتركني!

وشدّني نحوه، بقيت بجانبه، أمسد على شعره وأربت عليه، علّه ينام!

بعد ساعة من ذلك، كان قد هدأ ونام نوماً عميقاً، ذهبت إلى غرفة الأجهزة، وأعدت تشغيل الفيديو، خلال ذلك رأيت الرجل تسقط منه ورقة.

بعد أن دله العم كريم إلى مكان غرفته، عاد ووجد الورقة ثم حاول أن يعيدها إليه لكنه توقف في منتصف المسافة كأنّه تذكر شيئاً ما، ثم عاد ووضعها في درج الطاولة.

أكملت الفيديو لنهايته وشغلت اثنين أخرين..

لكن لم يتغير شيء مثلما قال لي العم.

خطرت في بالي فكرة سأراجع السجلات بذلك التاريخ، حاولت مراجعتها، إلا أنّ اسماً واحداً كان مخفياً.

حاولت التأكد من تاريخ التوقيع وربطه مع حضوره داخل الفيديو فوجدت أنّه هو من كان اسمه مخفياً..
عجباً لذلك، أكلّ هذا الأمر!

حذفت شريط الفيديو، ثم ذهبت إلى العم لأطمئن على حاله فوجدته نائماً، هنا شعرت بالراحة على ذلك!

هنا أصبح الوقت متأخراً، ذهبت ونمت بالقرب منه، كان الأرق يلازمني طوال الوقت، لكن علمت الأن لم بات الزوار ينبذون هذا الفندق، كل تلك الأشياء عقابٌ للعم لكن لا أعرف لمّ؟

أذكر أنّ الساعة أصبحت ال 3 صباحاً ولازال النوم يهجرني، منذ الصباح أيضاً لم نأكل أنا وإياه.
لا أذكر متى غفوت لكن صحوت على غلق الباب بقوة، التفت إلى مكان العم وكان خالياً، لحقت به، كان يعدو سريعاً.

حينما وصل للرصيف كنت أنا عند باب الفندق خشيت من أنّ يُسرق شيء ما من الداخل أغلقته ولحقت بالعم، كان قد وصل

إلى طرف الشارع، حينما وصلت إلى هناك كان قد اختفى، لم أجده!

عدت إلى المقهى الكائن بجانب الفندق، أعرف أنّ العم كريم وصاحب هذا المقهى صديقين منذ زمنٍ طويل، أخبرته بذلك وقال لي: لأول مرة أرى وجه كريم بهذه الغرابة، أعرف أنه هو لكن وجه لم يكن كوجه كريم،
ولا الهيئة التي كان بها!

حاول الاتصال به لكن هاتفه كان خارج النطاق، ذهبنا أنا وأحد العمال للحاق به، كان اسمه ماجد حسن الخلق والمعاملة، سألنا عن العم في كل مكان وأخبرنا الشرطة عن ذلك، لكن لا جدوى من كل ذلك.

خلال عودتنا شكوت لماجد أمري: إنّ لم يعد العم كريم فلن أجد مبيت وأغراضي كلها بالداخل.

قال لي: صاحب المقهى هو عمي سأطلب منه الأذن لتذهب إلى بيتي.

_ لا أستطيع الذهاب لمنزلك يا ماجد، لكن إن أذن لي صاحب المقهى سأبيت فيه.
_ وأنا سأحضر لك كل ما تحتاجه!

كان صاحب المقهى ودوداً كثيراً، حتى أنّه طلب منّي الذهاب لمنزله أيضاً، لكن أحببت أن أبقى هنا وحدي!

أحضر ماجد الفراش في الساعة الواحدة ليلاً، أغلقوا المقهى ووضعت الفراش في منتصف المقهى بين كل هذا الدفء، لكن خشيت أن أطلب الطعام مع أنّ جوعي كان شديداً.

في ساعات الصباح المبكرة، أتصل ماجد وأعتذر من اتصاله لكنه أخبرني بضرورة إزالة فراشي وتجهيز المكان لاستقبال الزبائن.

لكن خدر النوم أصابني حينها ونمت ولم أنتبه لساعة وربع بعد ذلك وصحوت على صوت صراخ رئيس العمال عليّ وتوبيخه الزائد والذي لا أستطيع وصفه.

أزلت الأغراض وكأنّ السكاكين تدخل عيني لكثرة ألمها وطيلة الأرق الذي أصابها وجعلها تسهر كل ذلك الوقت، لتنام في الوقت الخطأ.

أجبرني رئيس العمال على تنظيف الطاولات وتوزيع الأغراض عليها أقنية الماء.. علب المناديل الخشبية...وغيرها..
ثم على تنظيف زجاج المقهى الخارجي، ثم جلي الأواني التي في المطبخ..

كل ذلك ثمنه السكوت، البشر لا يرحمون من هم أقل منهم أوصالاً وأوصالي وسبلي مقطعة ولم يترك حبلاً إلا وقطعه ببذاءته وكرهه وتجبره علّي... لم استطع الرد بسبب ما وجدت من طيب عند ماجد وصاحب المقهى..

بعد ساعات أتى ماجد وعمه وحاولت أن أخبرهم بذلك لكن لا أعلم ما الذي منعني، ثم بعد ذلك جلسنا أنا وماجد وصاحب المقهى تسأل عن سبب اختفاء العم كريم، ثم حاول الاتصال به ولم يجب..

هنا في هذه الأثناء اتت الشرطة وفتشت الفندق ثم أغلقته ومنعت من الاقتراب منه، أو حتى الدخول، سألتهم فيما لو أستطيع أخذ حقيبتي والأغراض التي تركتها هناك.

لكنهم رفضوا فعل أي شيء بحجة أنّ ذلك غير قانوني.
خلال عودتي رأيت رئيس العمال قد أنهى حديثي للتو مع ماجد وصاحب المقهى.

وحينما وصلت ذهب ماجد للداخل، أما صاحب المقهى تجاهلني، سألته فيما لو أجاب العم كريم على اتصالاته، لم ينظر إلي حتى، ولم يجب!

قلت له: يا عم إنّ كان وجودي يسبب لك إحراجاً أو ضيقاً، فإني والله أعتذر وسأخرج، وإنّ كان لسببٍ أخر فإذّي لم أفعل أي شيء يؤذي ما رأيت من ودّك..
لكن.....

كان هنا في قمة تجاهله لي، ولم أستطع فعل أي شيء سوى الرحيل.

لعلي لا أعرف كيف أصف مشاعر الخجل والذل التي حصلت لي.

كأن ما بيني وعتبة الباب مسافة سنة كاملة لم تنته دون أن تأخذ ملامحي جميعها.
المفاجأة التي حصلت أنّ الجو ذاته قد انقلب فجأة، أمطرت بغزارة، كان المكان الذي استطيع أن أجلس به هو في عتبة باب الفندق، لم أستطع أن أحمي جسدي كاملاً من المطر قد استمر لاثنا عشر دقيقة.
قد تبللت كتفاي وجوربي أيضاً..

أتعرفون كيف يجلس اليتيم وحيداً وضائعاً لا أمان له، كنت كذلك!

إلى الآن مضت أربع ساعات على هذا الحال والبرد كان يزوروني بين الحين والحين الأخر، لكن لا فكرةً تدفئني، غير مجيء العم كريم فجأة مثلما ذهب! أمل ذلك.

صار النهار يمر سريعاً كما لو أنّه ضوء وانقطع إلى الأبد، كنت هنا أراقب باب المقهى عسى أنّ يشعر صاحبه بالشفقة عليّ، لكن بلا أمل!

حان موعد خروج ماجد من المقهى، سأشكي له ما حدث هو الوحيد الذي بقي لي، الوحيد الذي سيأسى على بقائي هنا بين كل هذا الخذلان...

خرج ماجد، قطع الرصيف وسار في طريقه دون أن يلتفت إلي رغم أنّه يعرف ذلك ورغم أني ناديته مرتين، كان يسمعني جيداً ولم يلتفت!

لا أعلم كمية الذنوب التي فعلتها كي أستحق كل ذلك! أسندت رأسي على الجدار كان الوحيد الذي لم أشعر بأنّه يكرهني!

غفيت ولم أشعر بذلك، صحوت بعد ذلك على البرد الذي نخر عظامي والصداع الذي كان قد بدأ لتوه في شق رأسي لنصفين من شدة ألمه...

أصبحت الساعة هنا الثالثة بعد منتصف الليل، ولا أحد هنا، إلا أنا وحدي بين جوعي وعطشي، وبين بردي ووحدتي، بين الألم الذي لازمني منذ البداية وبين خسارة الجميع في كل لحظة!

حاولت النهوض كي ابحث عن شيءٍ أستطيع أكله أو شربه، لكن جسدي كأنه كتلةٌ من الألم التي تقتل كل ذرةٍ خبأت راحةً لجسدي ولروحي..

مررت من أمام المقهى، ووقفت أنظر لمكان نومي البارحة بمنتصفه هناك بين كل ذلك الدفء من الحب والمشاعر...
ثم سرت كالمخذول، أعرج في مشيي وأسير إلى المجهول.
قطعت شارعين ولا شيء غير الخوف والجوع هنا،
ذهبت إلى الساحة لعلّ أحداً ما يراني وأؤنس به...

" دائماً ما كنت أشعر أن الفقراء في الشارع ماهم إلا حفنة من ممارسي دور المساكين، كنت أحسب أنّي بتجاهلي لهم أكون ذكياً ومتعالياً، لم أجرب أبداً أن أجوع ليومين كاملين، أو أنّ أذل بهذه الطريقة، كنت مخطئاً ولا أزال كذلك "

اقتربت من إحدى المحلات التي تضع إعلان وجبات البرغر الشهية، وقفت هناك لِلحظات، أفكر فيما سيحصل لي، لا أستطيع كبت الدموع التي لا تكاد تكف عن الانهمار بكثرة، أسندت رأسي على الإعلان الذي كل ما أتمنى أن يصبح حقيقة!

أغمضت عيني وفكرت حينها فيما لو كان حقيقة فعلاً بدأت أمسك بها جيداً أخذتها بين شفتي ورائحتها اللذيذة تدخل إلى رأسي بشكلٍ يزيد شهوتي على أكلها سريعاً...لكن الجوع جوع لا يسنده الهواء... ولا تشبعه فكرة!

أثناء ذلك مرّ طيف العم كريم من أمامي بسرعة!
شعرت بصدمة في البداية، أنظر إليه كأنّه الجنة التي تحملني من هذا كله!
ها قد وجدته، بدأت بمناداته: عم كريم.. عم كريم.. أنا عابد لكنه لم يقف!
لحقت به بسرعة، وأذكر أنّ كل برك مياه الأمطار قد بللتني حينها، ولم ألحق به.
اختفى!

بدأت بالصراخ كما لم يصرخ أحدٌ من قبل، كأن حبالي الصوتية أفرغت كل ألمي دفعة واحدة دون تتالي ودون أن تعمل بعدها.

مشيت بتثاقل نحو أول بابٍ أراه، طرقته عدة مرات، لم يفتح أحد..
ذهبت إلى الباب الأخر، كذلك الأمر، يعرفوا أنني بالباب، لكن

لم يجب أحد، أتعرفون كيف يبكي الإنسان وصوته قد انقطع
"روح تُمزق روح"
لو أستطيع الخروج من مدينة الهدير لأعود إلى مدينتي "الندى" لفعلت!

أكملت في مسيري نحو نهاية الطريق، وجدت ورقةً مبللة، أول ما كان يخطر في بالي أنّ أكلها لشدة ماكنت به، وخاصةً أنها مبللة، أخذتها من فوق الرصيف، فتحتها لأمزقها بشكلٍ لا يعلق في حلقي، كان مكتوب فيها: أفعل ما جئت لأجله!

مزقتها قطعاً بحجم إصبعين، وبدأت بأكلها، لم تختلف عن أي شيء أكلته، كانت كالبرغر الذي كنت أتخيله!
حينما انتهيت رأيت القمر لأول مرة!

لم أكن أنظر إليه من قبل، أردت الذهاب نحوه، كلما اقتربت اقترب، كلما ركضت كان يهبط أسرع، كانت عيناي تغرقان بالدموع بشكلٍ لا يصدق!

تعثرت أثناء ذلك بحجرةٍ سوداء تحتها زهرة صفراء لم تمت بعد!
حينما قطفتها تذكرت علاء!

تذكرت كيف اختفى، كيف كان يبكي دون أن يشعر به أحد!
في تلك الأثناء كنت قرب مسجدٍ لا أعلم ما كان اسمه!

لكن صوت الأذان أنساني ماكنت به، كالمعلق بحبلٍ من عنقه وكالروح التي تطوف نحو ما تحب، وصلت إليه، لكن لم أستطع الدخول، كلما حاولت شدّني كل شيء لأظل دون حراك، حتى

الصراخ أو النداء لم أقوى عليه، فقط ألم يخرج من ملامحي دون صوت!

حينها سقطت على عتبة الباب على الأزهار الصفراء الكثيرة المقطعة!
رأيت علاء!
_علاء، أين كنت؟ أتعلم أنّني سافرت من "الندى" إلى هنا كي ابحث عنك!

لم يكن ينطق فقط ينظر إلي وعيناه حزينتان.
خلال كل هذا لم يغادرني صوتٌ لا أزال أذكره ولا يغيب عن مسمعي، صوتٌ أعلم أنّي سمعته كثيراً، صوتٌ تعالى حينما سقطت أخر الرايات وأول الأحصنة، صوتٌ وداع الروح للهدوء والسكينة..
يقف على بعد مترين مني ثلاثة رجال، كان الأوسط بينهم عبسُ الوجه يضع يديه خلف ظهره كأنّه مكبل بالأصفاد،
أما الذي يقف على يساره لم يستطع الوقوف على قدميه جثا كأنّه الخاسر الوحيد في هذا العالم.

والأخر لا أعلم لم أميز عينيه جيداً كانتا غارقتان بالدمع إلى حدٍ لم يستطع حتى إيقافها.
إلى الخلف قليلاً امرأة تضع يدها اليمنى على كتف الشاب الذي ينظر إليّ بانكسارٍ شديد..
لا أعلم لم كل هذا؟

لا أعلم ولكن لتكن هذه الرواية رسالةٌ لكن لتعلموا أنّ هنالك من يستحق ألا ننساه ألا يبقى ذكره مدفونٌ في الذاكرة فقط.
علّمت وقتها أنّ كريم كان أبي، وماجد كان أخي، وأنّ روحي هي التي تطوف من بيتي إلى المسجد الذي خرجت منه.. إلى المنفى الأخير!

رسالةٌ من روحٍ إلى روح:

أعلم أنّ الأمر صعب على الإنسان أن يبقى إنساناً، أن يعيش بكل ما يحب، بكل ما يريد، بالسعادة ... بالألم، بالفقر أو الغنى، مع من يحب أو مع من يكره، لكن ليس عليه أن يهلك نفسه، ليس عليه أن يهلك بدل الحياة الواحدة آلاف الحيوات التي لا تنتهي..

ليس عليه اختيار الموت من تلقاء نفسه، فقط لأنّه لم يعد يجد شيئاً يبقيه في هذه الحياة التعيسة، أو أنّ الحياة الآخرة هي أفضل له بتلك الطريقة، بل عليه أن يعلم أنّ وحدة الإنسان وسعادته تكمن في اختياراته جميعها ودائماً يستطيع الابتعاد عن ذلك بأي طريقة غير الانتحار!

وليعلم أنّ الله لم يكن ليخلقه من عدم ليلقيه إلى العدم، ولم يكن ليرميه في هذه الحياة وحده دون أن يعطه الخير، ولعل الفوز بالجنة فقط هو إيمان بأنّ الله إله وليس بشر وأنه يفكر برحمة لا بعذاب!

كان
عليك
أنّ
تبقى
بجانبي
عندما
هزمتني
الأشياء
لا أن
تكون
ضمنها